

أوجه الشبه والاختلاف في حركة جهاد عمر المختار في ليبيا ومحمد بن عبد الله حسن نور في الصومال

د. فادية عبد العزيز القطعاني

قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم - سلوق

جامعة بنغازي

مقدمة :

اتسم القرن التاسع عشر بطبيعة خاصة، على المستويين الأوروبي والإسلامي، فعلى المستوى الأوروبي شكلت طبيعة هذا القرن النمط الأكثر استدامة للإمبريالية الأوروبية في أفريقيا، فعلى الرغم من أن الدول الأوروبية كانت آخذة في التوسع، منذ قرون عديدة، إلا أنها كانت قد تركت أفريقيا جانبا حتى ذلك الحين، باستثناء استعمار الكاب في 1652، واستعمار الجزائر في 1830؛ إذ كان اهتمام تلك الدول منصباً بشكل خاص على العالم الجديد، والإمكانات التي يمكن أن تقدمها آسيا في ميادين التجارة والاستخدامات الصناعية. أما أفريقيا فقد بقيت على هامش هذه النشاطات الاستعمارية، حتى سنة 1870، عندما قام وضع جديد في أوروبا⁽¹⁾.

لقد أدى تكون الدول القومية، مثل إيطاليا وألمانيا، إلى نشوب منافسة حادة بين القوى الأوروبية الكبرى (بريطانيا وفرنسا)، ازدادت حدة بانتشار الثورة الصناعية، وما صاحبها من تطور تكنولوجي، ما دعا الدول الصناعية إلى خلق أو إيجاد مجال اقتصادي خارج أراضيها، يتمحور حول مصادر المواد الأولية ومناطق التسويق، يتناسب مع الطموح الاستعماري لبناء دول توسعية، فكان أن امتزجت في تلك الحقبة الدوافع والغايات. ولذا ليس من السهل التفريق بين الدوافع السياسية والدوافع الاقتصادية، فالسياسة الأوروبية الاستعمارية آنذاك كانت سياسة مركبة من مجموعة اعتبارات: اجتماعية واقتصادية وسياسية⁽²⁾.

من جهة أخرى يجب أن يؤخذ في الاعتبار ما كانت عليه الأوضاع في أفريقيا عامة، من حيث الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي أسهمت، بشكل أو بآخر، في تدخل الدول الأوروبية المتزايد في أراضيها.

أما علي الصعيد الإسلامي فقد شهد القرن التاسع عشر، في مطلعته وآخره، الكثير من الحركات الإصلاحية الدينية، قادها زعماء وشيوخ ينتسبون للطرق والزوايا الصوفية المنتشرة في القارة الأفريقية، منها -على سبيل المثال-: القادرية، التيجانية، المهديّة، الصالحية، السنوسية، الميرغنية وغيرها. كان الغرض من هذه الدعوات في الأساس تصحيح مسار الدين الإسلامي وتخليصه مما علق به من خرافات وبدع، وإيقاظ المسلمين من غفلتهم، وبعث النشاط فيهم مجدداً، بمختلف الطرق والوسائل، لمقاومة التغلغل الاستعماري الأوروبي بكافة صورته وأشكاله⁽³⁾. وفي هذا الصدد، لعل أبرز ما يمكن قوله عن هذه المرحلة التاريخية، على المستوى الإسلامي، أن العديد من الطرق الصوفية حملت راية الجهاد المقدس وشعار النصر أو الاستشهاد في سبيل الدين والوطن.

بناءً على ما تقدم، سنتناول في هذه الورقة (أوجه الشبه والاختلاف بين حركة جهاد عمر المختار في ليبيا ومحمد بن عبد الله في الصومال) على النحو التالي:
أولاً: استراتيجية الاستعمار الإيطالي وظروف تغلغله في الصومال وليبيا.
ثانياً: جهود رجال الصوفية محمد بن عبد الله وعمر المختار في مقاومة الاستعمار، وذلك باستعراض مركز لشخصيتهما ونشأتها الفكرية والدينية وأوضاع مناطقيهما التي اعتبرت أسباباً

مؤدية لظهورهما على ساحة الجهاد، كما شكلت أيضا أبعاداً سياسية واقتصادية واجتماعية لحركتيهما.

أولاً : استراتيجية الاستعمار الإيطالي وتغلغه في الصومال وليبيا :

لم تبدأ إيطاليا خطواتها الأولى كدولة استعمارية في البحر المتوسط، الذي كان بؤرة صراع ومنافسات حادة بين القوى الأوروبية، بل بدأتها في البحر الأحمر⁽⁴⁾، مقحمة نفسها في سياسة تقسيم أفريقيا، من خلال لعب دور في تقسيم قارة تجمعها بها روابط قديمة⁽⁵⁾. ولهذا حاولت، بعد تحقيق وحدتها في 1870م، أن تحقق طموحاتها الإمبريالية، التي أصبحت معالمها أكثر وضوحاً في عهد فرنسكو كريسبي (1818-1910)، الذي أطلق لها العنان، باعتماد خطة سياسية تقوم على مجموعة من الذرائع الاقتصادية والديمغرافية، التي تدخل فيها اعتبارات تاريخية وتبشيرية⁽⁶⁾. من هذا المنطلق اتجهت إيطاليا نحو منطقة القرن الأفريقي، الذي كان نقطة البداية لسياستها الاستعمارية، مستفيدة، لتحقيق ذلك، من التطورات التي حدثت في المنطقة، بسبب التوسع البريطاني والفرنسي، على أثر حالة التنافس التي نشبت بينهما، نتيجة حدوث فراغ، بعد انسحاب الحامية المصرية من السواحل الصومالية والأريتيرية، فضلاً عن حالة التنافر والنزاع الدائم بين الحكام والزعماء المحليين في المنطقة⁽⁷⁾.

لعل أهم ما تميزت به هذه المرحلة من مراحل التوسع الاستعماري في أفريقيا في القرن التاسع عشر أنها قامت على أساس التبادل والتعويض، فميكانيكية التعويض جرت من خلال سلسلة من الأفعال وردود الأفعال الاستعمارية المتتالية. ألمانيا تهزم فرنسا في الحرب السبعينية في أراضيها، فنتججه هذه لتعويض خسارتها باحتلال تونس، وفي تونس فرنسا تقضي على أطماع إيطاليا، فنتججه الأخيرة للتعويض في شرق أفريقيا، ثم ليبيا⁽⁸⁾. وكان مما ساعد على حدوث هذا حالة الوهن الظاهر على الدولة العثمانية، وبالطبع كانت إيطاليا كغيرها مهتمة بالحصول على نصيب من إرث الرجل المريض⁽⁹⁾.

في إطار هذه الاستراتيجية الموسوعة، يتضح سبب تكالب القوى الاستعمارية على شرق أفريقيا، وهي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وقد تمثل أساساً في الأهمية الاستراتيجية للمنطقة، لا سيما بعد افتتاح قناة السويس في 1869، فقد رأت تلك الدول أنها لو تمكنت من السيطرة على هذا الجزء من أفريقيا، فسوف تتحكم في الموانئ والمداخل والممرات البحرية والطرق الاستراتيجية المؤدية إلى

مستعمراتها على المحيط الهندي والهند الصينية ومدغشقر وغيرها. ولهذا مثلت القيمة الجغرافية للمنطقة المفاتيح الاستراتيجية للقوى الاستعمارية خارج أراضيها، من خلال استعمارها لاتخاذها مواقع وقواعد عسكرية. لتحقيق ذلك، سعت إيطاليا كغيرها من الدول الاستعمارية إلى أخذ حصتها، فتمكنت بمساعدة الدبلوماسية البريطانية من بسط نفوذها السياسي والعسكري على السواحل الصومالية، لتكون، كما أرادت لها بريطانيا، حداً فاصلاً وعازلاً دون الحركة المهدية في السودان، ودون أطماع فرنسا في المناطق التي كانت بريطانيا تعدها مناطق حيوية بالنسبة لها⁽¹⁰⁾.

استطاعت إيطاليا، من خلال عقد اتفاقات الصداقة والحماية مع بعض الزعماء الصوماليين، أن تدمج كل المدن الساحلية على المحيط الهندي تحت اسم الصومال الإيطالي، ماعدا تلك السواحل الصومالية مقابل خليج عدن، التي كانت خاضعة للنفوذ البريطاني⁽¹¹⁾، كما ضمت إليها الموانئ المهمة، سواء المظلة على البحر الأحمر، كميناء مصوع 1885، الذي يعد منفذاً طبيعياً على هذا البحر، أو المظلة على المحيط الهندي، مثل ميناء قسمايو.

وبهذا صار لإيطاليا وجود في عصب ومصوع وسواحل أريتريا وسواحل الصومال وكل المدن الساحلية على المحيط الهندي، وهو ما عرف بالصومال الإيطالي، تمييزاً له عن الصومال البريطاني والصومال الفرنسي.

وفيما يتعلق بليبيا اتبعت إيطاليا نفس النهج لتحقيق مكاسب، من خلال صفقة المساومات الاستعمارية، التي حددتها توازنات القوة على القارة، فعلى مسرح الأطماع نفسه تحدد مصير ليبيا، كجزء أخير باق في شمال أفريقيا، بين كتلتى الاستعمار البريطاني في الشرق، والاستعمار الفرنسي في الغرب، ما جعلها في نظر القوى العظمى منطقة فراغ إمبريالي. ومن أجل إبعاد إيطاليا وترضيها، قدمت تلك الدول دعمها وتأييدها لها لملء هذا الفراغ، فأقدمت إيطاليا على غزو ليبيا عسكرياً في 1911، هادفة من وراء ذلك إلى تحقيق غرضين: الغرض الأول استيطاني ديمغرافي، والثاني استراتيجي. وقد شجعها على ذلك القرب الجغرافي، فليبيا تواجه إيطاليا مباشرة على البحر، ما جعل موقعها ذا أهمية خاصة من هذه الزاوية، ولهذا اعتبرت المجال والمنفذ الاستعماري الطبيعي لها، فهي لا تتوسط ساحل البحر المتوسط الجنوبي في مواجهة إيطاليا فحسب، ولكن تقع بين الاستعمار البريطاني في شمال شرق أفريقيا والفرنسي في شمالها الغربي. ولذا اعتبرت إيطاليا ليبيا جسراً يمتد من القاعدة الأم، وموطئ قدم لها على اليابس الإفريقي، ورأس حربة داخل محيط

الاستعمار البريطاني الفرنسي⁽¹²⁾. وعلى ضوء ذلك أخذت إيطاليا تدعم وجودها في ليبيا بمختلف الوسائل.

أما فيما يتعلق بسياسة إيطاليا تجاه مستعمراتها في الصومال وليبيا، فقد اتسمت في الصومال بعدم المعرفة بالبيئة الطبيعية والاجتماعية للقبائل الصومالية، فقد قسم الصومال بين كل من إيطاليا وفرنسا وبريطانيا، وقسمت قبائل عفر بين إيطاليا وفرنسا وأثيوبيا⁽¹³⁾. وقد أدى تقسيم المنطقة إلى أقاليم هامشية اصطناعية، لحساب التوسع الإقليمي للدول الاستعمارية، إلى التأثير سلباً على حياة الصوماليين؛ إذ خلق مشكلات عديدة اجتماعية واقتصادية وثقافية. وبهذا يتضح أن الوجود الاستعماري في الصومال قد تشكل في الفترة 1884-1914، وتشكلت معه وبه خريطة الصومال. وأياً ما كان تقسيم الحدود ومدى دقته أو عدم دقته وملاءمته للبيئة الطبيعية والبشرية، أو عدم ملاءمته لها، فقد مثل في كل الأحوال مشكلة قومية؛ إذ خلق التقسيم الاستعماري ضغوطاً وحدوداً، وفتت وحدة الصومال القومية، المتمثلة في وحدة الأصل واللغة والدين، إضافة إلى الأسلوب الواحد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وفوق كل ذلك فقد شكل وجود الاستعمار تهديداً للثقافة والهوية الصومالية التي تمثلها الثقافة الإسلامية.

أما سياسة إيطاليا تجاه ليبيا فقد اختلفت بعض الشيء، ولكن على نحو أسوأ وأبشع، وذلك لأن إيطاليا لم يوازها أحد على ليبيا، فانفردت بها تماماً، بخلاف الصومال الذي تحول إلى بؤر للصراع بين الأطراف المتناحرة عليه، فانعكست هذه الخصوصية التي انفردت بها كل من المنطقتين على السياسة الإيطالية تجاهها. ففي ليبيا استخدمت إيطاليا كافة أساليب القمع والإبادة للقضاء على حركة المقاومة الليبية، من قتل وإعدام ونفي وتهجير واعتقال، دون تمييز بين شيخ وطفل وامرأة⁽¹⁴⁾. وجراء ضراوة الاستعمار الإيطالي، تناقص عدد سكان ليبيا بشكل ملحوظ، ما يمكن اعتباره ظاهرة تكاد تنفرد بها ليبيا. ولهذا كانت مأساة ليبيا لا تقارن إلا بمأساة الجزائر من قبل، وربما فلسطين من بعد. وهذا وحده هو الذي يفسر لماذا كانت ليبيا من الدول القليلة التي تعرضت لتناقص سكاني خطر في ظل الاستعمار⁽¹⁵⁾.

وهكذا توفرت أركان المقاومة أمام الصوماليين والليبيين، وهي: وجود مستعمر أجنبي، يهدد الأرض والعرض والدين واللغة.

برزت في تلك المرحلة جهود رجال الصوفية، من أمثال محمد بن عبد الله وعمر المختار، في مقاومة الاستعمار الأوروبي في أفريقيا، فقد ارتبطت حركة الجهاد الإفريقي، في ليبيا والصومال وغيرهما، بالدين، من حيث إن المحتوى العَقدي يتركز في الأساس الأخلاقي الذي قامت عليه الطرق الصوفية، وما تفرع عنها من قيادات وزعامات إسلامية، مثل محمد بن عبد الله حسن نور في الصومال وعمر المختار في ليبيا وغيرهما. هذا الأساس كان بمثابة قاعدة قوية لتفاعل مجموعة من القيم والمبادئ الصلبة، شكلت الركيزة لفريضة مهمة هي فريضة الجهاد، فالعقلية الإيمانية والصفات الخلقية والروح الجهادية التي امتازت بها الطرق الصوفية هي نتاج تعليم ديني وتربية إسلامية، منبعها الإسلام وثقافته، وقد تناقلها الخلف عن السلف.

1- جهاد الشيخ محمد بن عبد الله حسن نور ضد الاستعمار في الصومال:

تعد الطرق الدينية في الصومال من أهم الظواهر الإسلامية فيها، فحينما يذكر انتشار الإسلام في هذه المنطقة تذكر الطرق الصوفية، وما أدته من دور بارز في نشر الإسلام، وفي الحفاظ على قيمه ومبادئه، والتصدي للمبشرين المستعمرين. وكان من هذه الطرق: -على سبيل المثال:- القادرية، الأحمدية، الرفاعية، الميرغنية، التيجانية، السنوسية، الشاذلية وغيرها. أما الصالحية فمن أبرز أتباعها المجاهد الصومالي محمد بن عبد الله حسن نور، الذي يلقب بمهدي الصومال، ويعرف كذلك ب(الملا) أي الشيخ⁽¹⁶⁾.

ولد محمد بن عبد الله حسن نور في بلدة فوب فردوت في إقليم الأوجادين شمال غرب الصومال، على الحدود الحبشية، ما بين عامي 1856، 1864. وتذكر بعض المصادر أن محمد بن عبد الله هو في الأصل من قبيلة عربية، هاجرت إلى الصومال في القرن السابع الميلادي واستوطنت فيه⁽¹⁷⁾. نشأ محمد في أرض أحواله (دولبهنته)، وهو اسم القبيلة التي تنتمي إليها والدته وتدعي (تمر بنت صيد)⁽¹⁸⁾. حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره، ثم درس اللغة العربية وعلوم الشريعة على شيوخ البلاد، ثم عمل بتدريس ما تلقاه من العلوم لإخوانه الصوماليين، فاشتهر بين المعلمين بسعة الإطلاع وغزارة العلم والمعارف، حتى لقب بالفقيه البار، لما امتاز به من عمق التفكير وبراعة التعبير والإقناع. وعندما رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج التقى هناك بمؤسس الطريقة الصالحية الشيخ محمد صالح السوداني، فتتلمذ عليه، حتى أجازته ووجهه لنشر الصالحية في الصومال⁽¹⁹⁾.

مارس محمد بن عبد الله نشاطه الديني والعلمي في الصومال، من خلال زاويته التي أسسها في بربرة. في تلك الأثناء كان الاستعمار البريطاني يمارس نشاطه التبشيري في المنطقة، ما كان يتعارض مع دعوة محمد بن عبد الله لتنظيم المجتمع الصومالي على أسس دينية سليمة، فرفع راية الجهاد ضد الاستعمار وأعداء الدين⁽²⁰⁾، خاصة بعد إطلاق أحد المبشرين في العاصمة بربرة الرصاص على مؤذن في مسجد كان قريباً، بدعوى أنه يزعهج بالآذان.

كان هذا الحادث نقطة البداية في دخول الشيخ محمد إلى الحياة الصومالية من بابها الواسع، وبدأت ملامح الطريقة واتجاهاتها تتحدد؛ إذ ثبت له أن لا سبيل لتخلص الشعب الصومالي من الاستعمار الغربي إلا بالكفاح المسلح⁽²¹⁾.

انطلقت الحركة الصالحية في جهادها ضد الاستعمار في الصومال من ثوابت مرجعيتها الدينية هي كتاب الله وسنة رسوله (ص)، فكانت دعوتها لشن حرب مقدسة مثيرة للنزعة الدينية عند الصوماليين، وكان محمد بن عبد الله يرى أن الإعداد للجهاد يتطلب تعبئة روحية، لأنها هي عصبه الحساس، وقلبه النابض، ومن ثم كان أسلوبه في التعبئة القومية يعتمد على الكلمة المنطوقة، سواء أكانت خطبة أم درساً أم قصيدة، فقد كان ينظم الشعر بالعربية والصومالية: ومن ذلك النص الصومالي:

"أفيكيل كفرك أري ايلي نئ
أخبار في طريق كومي أولح أقادي
ألوف أبو ألوف كوي أخوتي بيئ
أي أدون كيل صغي أري أيوه جيليا
اختبارك نمكا كوك أجداد بحاجة
أن لجوه اكرهين كلجعل جفر ابرارية
الشهادات من جرن كداي أن سع من سوء "

الذي ترجمته بالعربية:

" لقد جذبتني رائحة المستعمرين القذرة
إلى أفيكيل وما فعلوه بالمجاهدين الأحرار
بالله ذبحوا ألوفاً وألوفاً من العصبية والبنات ومن الإبل والأغنام.

كان هذا وأسفاه بمساعدة بعض الخونة
الذين يساعدون المعتدين باختيارهم، وليسوا مكرهين على ذلك
لابد من قتل الخونة مهما نطقوا بالشهادتين
ولأن الإسلام بريء من الخونة العملاء⁽²²⁾.

كان محمد بن عبد الله يهيئ الشعب معنوياً للمقاومة بإعلان رأي الدين في كل ما يتصل
بقضية بلاده من مسائل، وكان هذا الأسلوب هو الأمل والملائم لظروفه وإمكانيات حركته بالنسبة
لزمته. ولكن فيما وراء الإعداد النفسي والمعنوي للجهاد، كان هناك كثير من التنظيم والإدارة
والإعداد المادي. فمن الناحية الإدارية، وضع محمد بن عبد الله ترتيبات تنظيمية داخلية لقواته التي
أطلق عليها اسم الدراويش، لإبعاد أي لبس أو أثر يمكن أن تسببه التسميات الحزبية أو القبلية، كما
أن كل فرقة من هذه القوات كانت تتكون من جميع القبائل تفادياً للمشاكل، وضماناً للرقابة، وسميت
كل فرقة باسم يدل عليها مثل: مينفل وهم أصحاب الميمات، لأن أسلحتهم كانت (م.م)، وشيخيل
وهم أصحاب المشايخ، وكان أكثر أعضاء هذه الفرقة من العلماء، وكان والد محمد منهم، وفرقة
تاكوري، وهم المجموعة المتخصصة في قطع الأسلاك الشائكة التي يتحصن بها الأعداء. وغيرها
من الأسماء، كما اصطنع شارات عسكرية مشابهة لما يستخدم في الجيوش الحديثة⁽²³⁾، وصنع
الأسلحة، كالرمح والسيوف والنبال والقصي، وحصل على عدد قليل من الأسلحة النارية، وعدد
وفير من الخيل، كذلك بني الحصون ومخازن الأسلحة، وحفر الآبار لتوفير مياه الشرب لجنوده،
كما عين قضاة للحكم في الخصومات والمواريث وللزكاة والزواج والطلاق، كما عين رجالاً أكفاء
لتحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف وتدريس العلوم الإسلامية والأدبية⁽²⁴⁾.

ومع أن محمد بن عبد الله كان يدرك أن ميزان القوة بينه وبين قوى الاستعمار غير متكافئ،
إلا أنه استطاع بإيمانه وعزيمته وعلمه وموهبته الفطرية أن يصنع النصر من أسباب الهزيمة، وأن
يصمد في وجه أعدائه أكثر من عشرين عاماً، خاض خلالها المعارك ضد بريطانيا وإيطاليا
والأحباش.

كانت أولى معاركه ضد الأحباش في ججه سنة 1900، وقد انتصر فيها عليهم، ثم توالى
المعارك والانتصارات ضد قوى التحالف البريطاني الإيطالي الحبشي، وكان من أبرزها معركة
عفاروين 1903.

ألهب نضال محمد بن عبد الله حركة المقاومة الصومالية، ما أدى إلى تفاقم الوضع، فخشيت إيطاليا على نفوذها في المنطقة، وأدركت أنها لو استمرت في سيرها في ركب السياسة البريطانية والحبشية، فسوف يكلفها ذلك الكثير مالياً وعسكرياً، وربما يفقدها الجزء الواقع تحت سيطرتها. وكانت ثمة عوامل أخرى مثلت مصدر قلق لها، منها أنها لم تكن تملك القوة العسكرية الكافية في مستعمراتها الصومالية لصد هجمات المجاهدين الصوماليين، وأن الكثير من القبائل الصومالية في القسم الإيطالي لم تعلن استسلامها الكامل، ولم تلق سلاحها، الأمر الذي كان مبعث قلق للإيطاليين. وأدى انضمام كثير من الشيوخ والسلطين لمعسكر المجاهد محمد بن عبد الله إلى زيادة خشية إيطاليا من التدخل البريطاني في الصومال الإيطالي، إذا ما قرروا ملاحقة المجاهدين.

إزاء هذا الوضع قررت إيطاليا طلب هدنة أو عقد مصالحة عامة مشتركة تضم إيطاليا وبريطانيا والحبشة مع المجاهد الصومالي، وبتفويض من بريطانيا أجرت إيطاليا مفاوضات قادها بستالوزا مع محمد بن عبد الله في 16-17 أكتوبر 1904، أسفرت عن الاتفاق علي جملة من القضايا، تم التصديق عليها في 19 مارس 1907.

اعتبر محمد بن عبد الله ما حدث فترة هدنة، يجب استغلالها لكسب الوقت، من أجل شحذ السلاح، فمد نفوذه إلى مناطق الصومال الإيطالي، وهناك أمدته القبائل الصومالية بالسلاح والعتاد. وفي 1908 واصل هجومه على الصومال البريطاني، فما كان من بريطانيا إلا أن انسحبت تحت ضغط قواته، وركزت وجودها في المدن الساحلية فقط دون الداخلية. وعلى أثر ذلك توقفت التجارة البريطانية في المنطقة، كما ساء موقف الإيطاليين. وشهدت هذه الفترة الوجيزة حوالي ثماني عشرة واقعة، ما بين مصادمات ومصادرات لبضائع خاصة بقوات المجاهدين الصوماليين، إضافة إلى محاولات للإضرار بتجارتهم وما إلى ذلك⁽²⁵⁾.

أدى تطور الأحداث بكل من بريطانيا وإيطاليا إلى اللجوء لسياستهما الاستعمارية المعهودة في مثل هذه الأحوال، عندما تعجز القوة أمام المقاومة، وهي سياسة (فرق تسد)، فعملتا على إثارة الفتن والمؤامرات وتزييف الحقائق، التي كان الهدف منها زعزعة الثقة الدينية في المجاهد محمد بن عبد الله، إلا إن ذلك لم يفت في عضد المقاومة الصومالية، ولم يطفئ جذوة الحماس الديني.

لكن مع اندلاع الحرب العالمية الأولى (1914-1918) واجهت المقاومة الصومالية جملة من الصعوبات، اضطرت محمد بن عبد الله للجوء إلى الدولة العثمانية، باعتبار أن المصلحة واحدة

في التخلص من العدو المشترك، وكان ذلك يعني بالضرورة قبول محمد بن عبدالله بالتبعية الدينية والسياسية للدولة العثمانية. ومن هذا المنطلق أعلن الجهاد المقدس ضد بريطانيا وإيطاليا باسم الخليفة.

ولم تجد الحكومتان الإيطالية والبريطانية، أمام شدة مقاومة الصوماليين سوى تسيير الجيوش، التي كان قوامها الهنود والزنج والصوماليون الموالون للاستعمار، فقصفوا المنطقة التي يسيطر عليها المجاهدون بالطائرات، لضمان القضاء عليهم، وذلك في 1920/1/21، في ما كان أشبه بحرب إبادة للمجاهدين، الذين واجهوا أقسى هزيمة في تاريخهم.

حاولت بريطانيا استثمار هذا النصر العسكري لإحراز نصر شامل على الشيخ وقواته، فطلبوا منه الاستسلام، فكان رده أن لا تنازل عما قامت المقاومة الصومالية من أجله، وهو تحقيق حرية الصومال ووحدته. فلجأ الاستعمار إلى وسيلة خبيثة دنيئة هي دس الجراثيم المميتة في مياه الشرب، في 1920/7/14، في منطقة تجمع المجاهدين، فحصدت الأمراض الخطرة أرواح الآلاف منهم. وفي 1920/12/21 توفي المجاهد محمد بن عبدالله حسن نور، قائد حرب التحرير الصومالية، وزعيم الحركة الصالحية ذات الفلسفة والإيديولوجية الراسخة، التي منحت الحركة قوة العمل والعطاء المتواصل، طوال عشرين عاماً. توفي بعد أن رسم للصوماليين طريق الجهاد، وحدد هدفه، وهو تحقيق الحرية ووحدة التراب الصومالي⁽²⁶⁾.

2- جهاد عمر المختار ضد الاستعمار الإيطالي في ليبيا :

يطلق عادة على الفترة 1923-1931 في تاريخ حركة الجهاد في المناطق الشرقية في ليبيا بفترة جهاد عمر المختار. وهي تسمية لم تأت عبثاً، فقد وضع عمر المختار بصماته عليها بشكل قوي وواضح، حتى صار من المسلم به إطلاق اسمه عليها⁽²⁷⁾.

وفي هذا السياق يجدر بنا الوقوف وقفة وجيزة عند نشأة عمر المختار وتكوينه الديني، لمعرفة مدى تأثير ذلك في تشكيل شخصيته الجهادية.

هو ابن المختار وابن عائشة من قبيلة المنفة، عائلة فرحات، من قبائل بادية برقة بليبيا. ولد بالبطنان، بمنطقة دفنة، بقرية جنزور، شرق مدينة طبرق سنة 1862 من أبوين عربيين⁽²⁸⁾. التحق بالمدرسة القرآنية في قريته، ثم واصل تعليمه الديني بزواية الجغبوب⁽²⁹⁾، التي كانت تأخذ موقع الرئاسة لجميع المعاهد السنوسية التي انتشرت في أنحاء برقة، لوجود كبار العلماء فيها، مثل السيد

المدني، والسيد فالح الظاهري، وهو من كبار العلماء بالمدينة المنورة، والسيد عمران بن بركة،
والسيد أحمد الريفي، من علماء المغرب الاقصى، والسيد عبد الرحيم المغبوب وغيرهم⁽³⁰⁾.

درس عمر المختار في هذه الزاوية السنوسية العلوم الشرعية، وما يتصل بها من دراسات في
اللغة العربية والفقه والمنطق والتاريخ، إضافة إلى تعلمه بعض المهارات والحرف اليدوية، كالنجارة
والحدادة والبناء، كما تلقى بعض التدريبات على فنون القتال. وقد أظهر براعة خاصة في ميدان
الفروسية. ثم عين شيخاً لزاوية القصور بالجبل الأخضر، حوالي عام 1895⁽³¹⁾، لحسن صفاته
وخلقه؛ إذ أوصي أساتذته بالجغوب السيد أحمد الشريف بتوليته مناصب إدارية وقيادية⁽³²⁾.

غرست النشأة البدوية والتربية الدينية في شخصية عمر المختار الكثير من القيم والمبادئ، مثل
الشجاعة والاعتزاز بالنفس وإباء الضيم والذود عن الدين والأرض والعرض، وغيرها من الصفات
التي جسدتها مواقفه ضد الاستعمار الإيطالي، وقبل ذلك ضد الاستعمار الفرنسي في تشاد، حين
كان شيخاً لزاوية عين كلك هناك⁽³³⁾.

عندما وقع الغزو الإيطالي لليبيا في 1911 بادر عمر المختار بالانضمام للمجاهدين، وكان
من أكثرهم حماسة ونشاطاً، فالتحق بدور بنية، ومنها قاد الهجوم على مدينة بنغازي، كما اشترك
في قيادة المجاهدين مع القوات العثمانية حتى انسحابها من ليبيا في 1912. كما أسهم عمر
المختار في حملة أحمد الشريف ضد الإنجليز في 1916⁽³⁴⁾. شهدت الفترة التالية، من 1917 إلى
1922، جملة من الأحداث والتطورات محلياً وعالمياً، أثرت، بشكل أو بآخر، على سير حركة
الجهاد، ما نتج عنه تولي عمر المختار قيادة حركة المقاومة في ليبيا سنة 1923، حتى استشهاده
في 1913.

استطاع عمر المختار أن يخلق جبهة قوية متماسكة، بعد أن نجح في تنظيم القبائل، على
الرغم من تباين واختلاف مشاكلها مع بعضها البعض، للدفاع عن الدين والوطن، الذي لن يتم إلا
بالنصر أو الاستشهاد. اتخذ عمر المختار من الجبل الأخضر معقلاً ونواة للمقاومة، وواصل العمل
بنظام الأدوار، لكنه طوره، مبتكراً فيه أسساً اقتصادية، تقوم على مصادر تمويل مادية وبشرية
لحركة الجهاد⁽³⁵⁾. وقد أصبحت هذه الاستراتيجية الجديدة في المجالين الاقتصادي والاجتماعي
العمود الفقري للعمل العسكري للمجاهدين. وبفعل ذلك أخذت حركة الجهاد في ليبيا صبغة شعبية،
لأن الجماهير الشعبية كانت تمثل فيها قاعدتها الأساسية، التي تمدها بوسائل استمرارها.

لقد كان جهاد عمر المختار ثمرة التجربة الميدانية في الاستراتيجية والتكتيك وفن القيادة، فقد ابتكر الأنظمة وطورها، واستحدث الخطط، وكشف حقائق الحرب وعوامل النصر، فاقترب الفكر بالممارسة، والتحم الابتكار بالتجربة. وفي هذا الصدد اهتم عمر المختار بالتقاليد العسكرية، فأبقى على نفس النظام العسكري المعمول به في الأدوار، من حيث الرتب والتنظيم الداخلي والتدريب في الدور والنداءات العسكرية وأسماء الأسلحة، كما أوجد مجلساً عسكرياً برئاسة، وأوجد لكل دور مجلساً إدارياً استشارياً مستقلاً، يحدد السياسة العسكرية والاقتصادية العامة للدور، على ضوء الخطط العامة لحركة الجهاد، مما يدل على سيادة مبدأ الشورى في حركة جهاد عمر المختار، وهو مبدأ له أهميته في قيادة المجاهدين.

طبع أسلوب المقاومة بطابع حروب الشعب المسلح، بفضل المشاركة الشعبية في المقاومة، والقيام بالمهام المختلفة، والانصياع لقائد تميز بالتيقن والحكمة والحكمة والمرونة والثبات والشجاعة. وقد أسهم كل ذلك في عدم تمكن إيطاليا من القضاء على حركة الجهاد في ليبيا أو محاصرة المجاهدين عن طريق المعارك الميدانية⁽³⁶⁾.

إضافة إلى هذا كان عمر المختار يقدر قوة خصمه، فلم يستهن بها، ومن ثم فقد كان يتوخى الحذر، مع المبادأة بالهجوم، في حالات معينة، ثم التحرك السريع بشكل يربك خطط العدو العسكرية. ويتجلى هنا استخدام عنصر المفاجأة، الذي يرتبط بشكل أساسي مع مبدأ خفة الحركة، فلولا خفة حركة المجاهدين ما كان لهم أن يحققوا الضربات السريعة والخاطفة ضد العدو⁽³⁷⁾. وهذا يدل على براعة عمر المختار، بوصفه قائداً عسكرياً، لأساليب الكر والفر، فقد كان دائماً يجعل نفسه في وضع يمكنه من نشر قواته، بما يسهل عليهم الانسحاب أمام هجمات العدو، وجمع هذه القوات، عند الحاجة، والقيام بهجوم جديد بشكل مفاجئ على مواقع غير متوقعة للعدو، مع تكبد أقل الخسائر⁽³⁸⁾.

وفق هذه الاستراتيجية، المبنية على الإيمان الصادق بقضية القضية، خاض عمر المختار المعارك الضارية ضد القوات الإيطالية، من 1923 حتى 1931، ومن بينها معركة بئر الغبي في 1924، ومعركة الرحيبة في 1927، إضافة إلى معارك قنندولة، الفايديّة، الاثرون، وادي السانية، عين الغزالة، وادي الطاقة، وعشرات غيرها من الاشتباكات⁽³⁹⁾. وفي كل هذه المعارك كان عمر

المختار حريصاً على قيادة المجاهدين بنفسه، من منطلق أن ذلك يوجب الحماس لديهم. وفي أحيان أخرى كان يكتفي بإدارة المعارك من بعيد⁽⁴⁰⁾.

ظل عمر المختار يقاوم الإيطاليين حتى الرمق الأخير، عندما أصيب هو وفرسه في إحدى المعارك، فتمكن الإيطاليون من القبض عليه بموقع عين لافو بوادي الطاقة يوم 1931/9/11، فأخذ أسيراً وحوكم محاكمة عاجلة، قضت بإعدامه شنقاً، وهو ما تم بالفعل يوم 16 سبتمبر 1931. فعل الإيطاليون ذلك بعد أن يسوا من استجابته لإغراءاتهم، وفشلهم في سياسة فرق تسد لإجهاض حركة المقاومة الليبية.

من خلال هذا العرض نصل إلى عدة استنتاجات تتعلق بأوجه الشبه والاختلاف بين الشخصيتين وحركتيهما والآثار المترتبة عليها معاً، هي كما يلي:

1. بروز العامل الديني عاملاً مشتركاً في حركة الجهاد ضد الاستعمار الأوروبي والإيطالي في ليبيا والصومال.

2. تميزت الشخصيتان ببناء عقدي وفكري ناتج عن تجربة صوفية هي مصدر ولادة القيم في حركة الجهاد. ومن ثم كان بروز العامل الديني في حركتيهما دليلاً على العلاقة العضوية ما بين التكوين الصوفي والواجب الوطني.

3. الصفات الشخصية والمعاملة وحسن الخلق تجلت في مواقفهما من الاستعمار، سواء في ساحة القتال أو على مائدة المفاوضات.

4. الرؤية المشتركة في أن الكفاح المسلح خيار لا عودة عنه، ولا بديل له، حتى تحرير الوطن من الاستعمار، سواء بالنصر أو بالاستشهاد.

5. وضوح الجانب القيادي في شخصيتهما، وتمتعهما بالموهبة الفطرية والكفاءة والجسارة في وضع الخطط وتنفيذها، إلى جانب البراعة في فهم وتحريك المجاهدين وإذكاء العزيمة في نفوسهم.

6. الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن وجود المستعمر الأوروبي عاملاً أساسياً في ظهور كليهما على الساحة الجهادية في مناطقيهما.

7. العامل الجغرافي والبناء الاجتماعي في ليبيا والصومال أسهما في حركة الجهاد، وذلك من حيث مناطق الاحتكاك والاتصال الاجتماعي، وما يمكن أن يوفره ذلك من حواجز طبيعية أو قدرة دفاعية، أو تفاعل مجموعات اجتماعية، تغذي حركة المقاومة مادياً وبشرياً.

8. اتفقا في مجال العمل التنظيمي لحركة الجهاد، من حيث إيجاد نظام عالي الكفاءة، يقوم على تشكيلات حربية وإدارية وسياسية واقتصادية، تضمن توزيع المهام بدقة متناهية، لتحقيق أفضل النتائج ضد العدو، فقد اعتمد محمد بن عبدالله في الصومال على فرق الدراويش، وفي المقابل كانت الأدوار هي السند لعمر المختار في ليبيا.

9. كلاهما مات شهيداً في سبيل الدين والوطن، محمد بن عبدالله توفي مسموماً، وعمر المختار أعدم شنقاً رغم كبر سنه.

أما نقاط الاختلاف فتتمثل في الآتي :

1. فكرة المهدي: إذ لقب الشيخ محمد بن عبدالله حسن نور بمهدي الصومال، نظراً لزعامته للطريقة الصالحية، بينما لم يتخذ عمر المختار لقباً دينياً، على الرغم من انتسابه للطريقة السنوسية.

2. عامل الزمن: إذ بدأ محمد بن عبد الله جهاده سنة 1900 حتى 1920، في حين قاد عمر المختار حركة المقاومة ابتداء من سنة 1923 حتى 1931.

3. وقوع الصومال فريسة لأربع دول استعمارية هي: بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، الحبشة، بينما لم تخضع ليبيا سوى للاستعمار الإيطالي فقط.

4. اختلاف ردود فعل إيطاليا تجاه حركة المقاومة في كلتا المنطقتين، نظراً للخصوصية المحلية كل منهما، إضافة إلى تطور الوضع السياسي في إيطاليا بظهور الفاشية في فترة لاحقة، متزامنة مع حركة جهاد عمر المختار، وانعكاس ذلك على حركة المقاومة في ليبيا.

5. نجاح عمر المختار في تطويع القبائل الليبية وانصياحها لقيادته دون منازع، بينما في الصومال أسهمت الظروف والضغط الاستعمارية، إلى حد ما، في عدم التفاف جميع الصوماليين حول محمد بن عبدالله.

يستخلص مما ذكر أن تاريخ الجهاد الوطني على الساحة الأفريقية، وليبيا والصومال جزء منها، قد حفل بأحداث البطولة ومظاهر التجلي وآيات السبق والتفوق، فقد كان الهدف الأسمى للمجاهدين

عمر المختار ومحمد بن عبدالله حسن نور وغيرهما هو حماية الدين والوطن والحفاظ على الهوية القومية. كلاهما كانا من الكبار الذين أنجبتهم الدنيا، فأعتر بهما العرب والمسلمون، وازدان بهما تاريخ الجهاد الإسلامي.

هوامش البحث:

1. هنري ويسلنغ، تقسيم أفريقيا 1880-1914، أحداث مؤتمر برلين وتوابعه السياسية، ترجمة: ريماء إسماعيل. ط1، (مصراته، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 2001) ص 20، 21.
2. المصدر نفسه، ص 456.
3. نيكولاي ايليتشي بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، منتصف القرن السادس عشر- مطلع القرن العشرين، ترجمة: عماد حاتم، ط 1 (طرابلس، مركز جهاد الليبيين 1991) ص 320.
4. هنري ويسلنغ، مصدر سابق، ص 393.
5. جمال حمدان، الجمهورية العربية الليبية، دراسة في الجغرافيا السياسية (القاهرة، عالم الكتب، 1973) ص 32، 44.
6. هنري ويسلنغ، مصدر سابق، ص 393.
7. عبد القادر صالح محمد، الخلفية التاريخية للنزاع الصومالي الأثيوبي حول إقليم أوجادين (الصومال الغربي)، مجلة البحوث التاريخية، س10، ع1، يناير 1988. (طرابلس، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي) ص 129.
8. جمال حمدان، مصدر سابق، ص 33.
9. هنري ويسلنغ، مصدر سابق، ص 392.
10. عبد القادر صالح محمد، مصدر سابق، ص 129.
11. المصدر نفسه، ص 130.
12. جمال حمدان، مصدر سابق، ص 44.
13. عبد القادر صالح، مصدر سابق، ص 135.

14. المهجرون والمنفيون والأسرى الذين لم يعودوا لأرض الوطن، إعداد: عطية محمد المحروق وآخرون، سلسلة نصوص ووثائق رقم 9 (طرابلس، مركز دراسة جهاد الليبيين، 1988) ص ب.
15. جمال حمدان، مصدر سابق، ص 39، 50.
16. نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، ط 2. (بيروت، دار الثقافة، 1972، ص 149.
- * اختلفت المصادر حول تاريخ ميلاد الشيخ محمد بن عبدالله حسن نور، فالبعض ذكر أنه ولد عام 1856، والبعض الآخر ذكر أن ولادته كانت في عام 1864. ونظراً لندرة المصادر حول هذا الموضوع لم نستطع تحديد التاريخ بدقة. ومن بين هذه المصادر: عبد الرحمن النجار، الإسلام في الصومال (مصر، مطابع الأهرام التجارية، 1973) ص 77.
17. شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1971) ص 630.
18. عبد الصبور مرزوق، نائر من الصومال، (مصر، الدار القومية للطباعة والنشر) ص 14.
19. عبد الرحمن النجار، مصدر سابق، ص 78.
20. المصدر نفسه والصفحة نفسها.
21. عبد الصبور مرزوق، مصدر سابق، ص 21.
22. المصدر نفسه، ص 21، 74.
23. المصدر نفسه، ص 33.
24. المصدر نفسه، ص 29، 35، 36.
25. جمال زكريا قاسم، العلاقات العربية الأفريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار (القاهرة، معهد الدراسات والبحوث الأفريقية، 1977) ص 367.
26. عبد الصبور مرزوق، مصدر سابق، ص 223.
27. عقيل البربار، حركة عمر المختار في الجبل الأخضر 1923 - 1931، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي، ط 2، ج 2 (طرابلس، مركز جهاد الليبيين، 1998) ص 320، 321.
28. يوسف سالم البرغثي، حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر 1927-1932. ط 1 (طرابلس، مركز جهاد الليبيين، 2000) ص 171.

29. إدريس الحرير، مواقف خالدة لعمر المختار، مجلة البحوث التاريخية، س10، ع2، يوليو 1988. (طرابلس، مركز دراسة جهاد الليبيين) ص71، 72.
30. عبد السلام الحبوني، أنساب القبائل العربية (؟، 1960) ص185.
31. هاشم يحيى الملاح، جهاد عمر المختار وتوضيحات الجماهير، مجلة البحوث التاريخية، س10، ع2، يوليو 1988، (طرابلس، مركز دراسة جهاد الليبيين) ص13، 14.
32. إدريس الحرير، مصدر سابق، ص72.
33. يوسف سالم البرغثي، مصدر سابق، ص174.
34. صالح رمضان محمود، جهاد عمر المختار على النطاق الليبي، مجلة البحوث التاريخية، س10، ع2، يوليو 1988، (طرابلس، مركز دراسة جهاد الليبيين) ص51.
35. عقيل البربار، مصدر سابق، ص321، 326، 328.
36. حبيب وداعة الحسناوي، الأساليب الحربية في حركة جهاد الليبيين، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي، ط2، ج2. (طرابلس، مركز جهاد الليبيين، 1998) ص406 - 409، كذلك: صالح رمضان محمود، مصدر سابق، ص52.
37. هاشم يحيى الملاح، مصدر سابق، ص17.
38. حبيب وداعة الحسناوي، مصدر سابق، ص406.
39. يوسف سالم البرغثي، مصدر سابق، ص75، 223.
40. باولو باقاني، الساعات الأخيرة من حياة عمر المختار، ترجمة: إبراهيم أحمد المهدي، مجلة البحوث التاريخية، س10، ع2، يوليو 1988 (طرابلس، مركز دراسة جهاد الليبيين) ص94.